مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد: 4 العدد01 جانفي 2021 ص ص: 118-132
ر ت م د (ISSN): 2602-618X / ر ت م د إ (E-ISSN): 2710-8031

أسطورة الأصل: القبيلة الصحراوية بين وهم النسب وواقع الانتشار من خلال دراسة لحالة أيت أوسى في الجنوب المغربي

Legend of origin: The tribe between the illusion of lineage and propagation circumstance

through a study of case of Ait Oussa in southern Morocco

سالم وكاري ♦

وجدة-المغرب، ouakari@gmail.com.a

تاريخ الإرسال: 2020/07/18 **تاريخ القبول:** 2020/11/21 **تاريخ النشر:** 2021/01/16

الملخص باللغة العربية: تُسائل هذه الدراسة الأنموذج الحكائي لقبيلة أيت أوسى الرحالة بالجنوب المغربي، والذي يتم استعماله في كل مناسبة تسمح بذلك، حيث تضاف إليه عناصر جديدة ويلغى منه ما لم يعد مجديا، وهذا النموذج الحكائي هو عبارة عن بداية نشأة المجموعة وظهورها على المسرح الاجتماعي بكل التفاصيل الممكنة، وكل ما تعرضت له أثناء بحثها عن الاستقرار والكيفية التي جعلت من أحد أفرادها يتميز بصفات غير طبيعية تثير انتباه القريبين منه فيلتفون حوله وتبدأ مسيرة جديدة من حياة الجماعة. ويدخل هذا النموذج الحكائي فيما يسميه الأنثربولوجيون بأسطورة الأصل.

الكلمات المفتاح: قبيلة؛ نسب؛ انتشار؛ مجال؛ زاوية.

Abstract : this research studies the anecdotal model of Ait oussa tribe in southern Morocco, this model is the beginning of the formation of the group and its appearance on the social stage in all possible details, and all that it experienced during its search for stability and how it made one of its members characterized by abnormal qualities that arouse the attention of those close to him and begin a new march of the life of the group. This anecdotal model is part of what anthropologists call the myth of origin.

Keywords: Tribe; lineage; propagation; Space; Zaouia.

♦ المؤلف المرسل

مقدمة: يعتبر البحث في تاريخ قبيلة أيت أوسى في الجنوب المغربي أمرا غاية في الصعوبة بالنظر إلى حياة الظعن والترحال التي كان يمارسها قسم كبير من هذه القبيلة من جهة، ثم غياب تقاليد التدوين عند مثقفيها من جهة أخرى، فباستثناء بعض الإشارات المقتضبة الواردة في بعض المونوجرافيات الاستعمارية، فإن الباحث في تاريخ هذه القبيلة لا يجد ما يشفي الغليل في باقي المصادر الأخرى بما فيها الوثيقة المحلية التي حتى وإن وجدت، فيبقى استخلاص المادة التاريخية منها أمرا صعبا إذ لم يكن المقصود من كتابتها توثيق أحداث تاريخية بقدر ما هي إثبات لحق أو اعتراف بواجب.

ويبقى أنه بالرغم من الصعوبات المذكورة، فقد مكننا الاعتماد على المتوفر من المونوجرافيات الاستعمارية، واستنطاق الوثيقة المحلية، إلى جانب الانفتاح على الرواية الشفهية ومساءلة نموذج القبيلة الحكائي، مكننا من محاولة إعادة بناء تاريخ أيت أوسى. فما هي روايات الأصول التي تتبناها هذه القبيلة؟ وإلى أي حد تنطبق عليها نظرة ابن خلدون فيما يرتبط بالنسب؟ كيف ظهرت أيت أوسى على المسرح الاجتماعي؟ وما هي المراحل التي قطعتها في صيرورة تكونها؟

1-روايات الأصول

أول إشارة تصلنا عن بدايات تكون قبيلة أيت أوسى، تجعل من فخدتي أَهَل حَمّوعْلي وأَنْفاليسْ وجزءا من إداوْتيّا وأيت إدّرْ " النواة المؤسسة " التي تكونت انطلاقا منها القبيلة، وتربط الرواية الشفهية هذه الفخدات بقبيلة الأوس سكان يثرب (المدينة المنورة)، وذلك عن طريق "موسى أُولَنْصارْ" و" يعقوب أولنصار". يقول ناسخ ديوان قبيلة أيت أوسى "إن أيت أوسى قدمت لهنا [كذا] في زمن عبد الملك بن مروان بن الحكم أحد خلفاء بني أمية، وهو موسى بن نصير الأوسي وتنسلت منه أَنْفَليسْ، وسيدي يعقوب تنسلت منه إدَاوْمَسْتَرْ وإداوتيا وبعض من أيت يدر"[1].

إن مسألة الأصل العربي الذي يربط النواة المؤسسة بقبيلة الأوس التي كان لها كبير الأثر في مناصرة الدعوة الإسلامية في بداياتها، يجعلنا نطرح مجموعة من التساؤلات من قبيل:

1 - مولاي عمر بن محمد الباهنين، ديوان قبيلة آيت أوسى، مخطوط بحوزتنا نسخة منه، مؤرخ بـ 1369هـ/1949، ص 5.

* لماذا التركيز على النسب الأنصاري، وشخصية موسى بن نصير بالذات، خاصة ونحن نجهل إوالية ارتباط "موسى أولنصار" و"يعقوب أولنصار" بالنسب الأنصاري عبر شجرة النسب التي تقف عند "أولنصار"؟.

* كيف يمكن أن نفهم ربط الرواية الشفهية "لعلي" جد أهل حَمّو أُوعْلي- عاش في القرن 15م[2]- مباشرة " بيعقوب أولنصار" الذي من المفترض أنه عاش خلال القرنين السابع والثامن الملاديين، إذا اعتبرنا معاصرته لأخيه موسى بن نصير؟.

* لماذا تبنى أنفاليس الذين يدعون الانحدار من موسى بن نصير اسما ذي دلالة أمازيغية واضحة (أنفاليس- الأمناء)، بدل تبني اسم الجد المؤسس أو أحد أبنائه على عادة القبائل العربية؟.

إن هذه التساؤلات قد تجد ما يجيب عنها حينما نعلم من جهة، أن شخصية موسى بن نصير احتلت مكانة خاصة في الذاكرة القبلية بالجنوب المغربي باعتباره القائد العربي الذي رسخ مبادئ الإسلام بين القبائل الأمازيغية في الجنوب[3]، ومن جهة ثانية فالفترة التي عاش فيها "علي بن يعقوب أولنصار" جد أهل حمو أوعلي (حوالي ق 15م)[4]، قد تزامنت والتحول الاجتماعي الكبير الذي عرفه الجنوب المغربي نتيجة المد الأعرابي المعقلي، والمتمثل في "تعريب الذاكرة المحلية"، حيث "تبنت جل الفصائل المنحدرة من كَلْ أَنْتَصار المسوفيين القول بانتمائها إلى النسب الأنصاري بعد انهزامها أمام المد الحساني"[5]، وذلك في إطار استراتيجية الحفاظ على مكانتها الاجتماعية بعدما أصبح النسب العربي هو الضامن لتلك المكانة.

هكذا إذاً يحق لنا أن نضع الأصل الأنصاري الذي تبنته النواة المؤسسة موضع شك وتساؤل، خاصة إذا علما أن اتخاذ اسم "أيت أوسى" هو لاحق لفترة ظهور النواة المؤسسة

---

2 - De FURST, Etude sur la Tribu des Ait Oussa. Vincennes: Rapport consigné dans les Archives de l'Armée de Terre, sous le n° 3H2211 (Poste d'assa), p 3-4.

3 حول شخصية موسى بن نصير ينظر: الحافظ بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، الجزء التاسع، بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة 8، 1410ه/1990م، ص 171- 174.

4 - De FURST, Etude sur la Tribu des Ait Oussa, p 3-4.

5 - مصطفى ناعيمي، مادة أولاد تدارين، معلمة المغرب، سلا: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1989، ص 2658.

بأَمَسْرَا. وحتى لا نستفيض في مناقشة مسألة الأصل والنسب الذي "لا يعدو أن يكون لعبة كلامية وظيفتها الأساسية إسناد هويات إلى الأفراد داخل فضاء اجتماعي، وترتيبهم وفق ظروف ومصالح معينة في حركة لا تنتهي"[6]، فالأهم هنا هو تتبع تطور النواة المؤسسة لفهم أسس وميكانزمات تطور قبيلة أيت أوسى.

2- ظهور القبيلة على المسرح الاجتماعي

شكل الإشعاع الروحي لزاوية أَسَا في القسم الغربي من الجنوب المغربي، عنصر جذب للنواة المؤسسة لقبيلة أيت أوسى، حيث ستهاجر هذه النواة من جبل أَمَسْرَا ضواحي تَغاجيجْت بالأطلس الصغير إلى حاضرة أسا وفي مقبرة زاويتها سيتم دفن رفات جد أهل حمو أوعلي، علي بن موسى بن يعقوب أولنصار سنة 913هـ/1508م[7]، على أن استقرار النواة المؤسسة بآسا لم يدم طويلا، إذ سرعان ما سيغادر جزء منها عائدا إلى أمسرا بعد أن فقدت الزاوية إشعاعها، وخلال هذه الفترة ستنظم إلى المؤسسين الأوائل فصائل جديدة كأهل "مْسَيْعِيدْ أُوسْعِيدْ القادمين من كْتاوَة" [8]، وأهل بُوجَمعة أومَسْعُودْ المنتمين إلى "مَجّاط تِزلْمي الأطلس الصغير"[9]، لينصهر الجميع في بوثقة واحدة أطلق عليها إداومستر متخذين من اسم المكان القاطنين به (أمسرا) لقبا لهذا التجمع الناشئ، وستضاف إليهم بعد ذلك بقليل تجزئة أنفاليس التي وطنها (Grteluis) "سنة 1595 على الساحل الجنوبي لوادي نون"[10].

ستعود هذه الفصائل بعد تجمعها مرة أخرى إلى آسا ابتداء من سنة 1039هـ/1630م، وستنظم إليهم خلال هذه المرحلة فصائل أخرى كإِمَغْلايْ ذات الأصول الكُنْتِيّة الموريتانية، ثم جزء من أَيت وَعْبانْ المنحدرين من إِدَاوْكِيس، بالإضافة إلى أَقْوَارِيرْ القادمين من تِقورارين جنوب الجزائر، وأَجْوَاكِين المتفرعين عن تَجَكَانْت

6 - KILANI, M. La Construction de la mémoire: le lignage et la sainteté dans L'oasis d'Elksar. Geneve: Editions labor et Fides, 1992, p 15.

7 - De FURST, Etude sur la Tribu des Ait Oussa, p 3-4.

8 -MONTEIL, V. Notes sur les Tekna. Paris: institut des hautes études Marocaines, 1948, p 18.

9 - Ibid.

10 - De La CHAPELLE, Les Tekna du sud-Ouest marocain, étude géographique, historique et géologique. Paris: Publication du comité de l'Afrique française, 1930. p 33.

الصحراوية، وكذا أجزاء من إداوتيا (أيت بُوغَراسْنْ القادمين من سوس وإدْ أيوب المنشقين عن إد إيوب بأَسْريرْ وادي نونْ).

ويبدو أنه خلال هذه المرحلة بالذات ستتبنى الفصائل المتجمعة اسم " أيت أوسى"، وستستلهم التقسيم السائد في قصر آسا (إدَاوْنْجيتْ وإدَاوْمَلِّيلْ)[11] تجسيدا للارتباط الروحي والمجالي بآسا، ولعل ما يؤكد ارتباط تسمية "أيت أوسى" باسم المجال "آسا" والتقسيمات السائدة فيه، وليس الأصل الجنيالوجي المنبثق عن قبيلة الأوس الأنصارية كما تحاول الذاكرة المحلية أن تثبته[12] هو توفر بعض القرائن منها:

* أطلق اسم (آسا) على الزاوية التي بناها إِعَزَّى أُوهْدَى قبل ذلك بنفس المجال، حيث أصبحت تسمى زاوية آسا بدل زاوية إعزى وهدى، وهو ما يدل على أن المكانة "القدسية للمجال"[13] وحدها كفيلة بسحب اسمه على كل ما له علاقة به.

* ورد في مخطوط سلسلة الأنوار[14]، المؤرخ ب 702هـ/1302م، اسم الإنْجيتي (نسبة إلى إداونجيت) لقبا لصاحبه محمد البربوشي، وهو ما يدل على أن تداول هذا الاسم كان سابقا لتكون قبيلة أيت أوسى خلال القرن 16م، وبالتالي اقتباسها له بعد استقرارها في القصر.

* تمثل فصائل القبيلة للتقسيم السائدة في قصر آسا (إداونگيت في الجهة الشرقية من القصر وإداومليل إلى الجهة الغربية منه)، على مستوى تقسيم المجال الرعوي بين أيت أوسى الشرق (إداونگيت) وأيت أوسى الساحل (إداومليل).

---

11 - يبدو أن الاسم "إداونگيت" مشتق من الفعل "إنْگي" الذي يفيد السيلان بالأمازيغية، وبالفعل فهناك مجرى مائي (وادي آسا) يمر بالقرب من المجموعة الموصوفة بهذا الاسم، أما "إداومليل" فهو مشتق من" أَمْليلْ" الذي يفيد اللون الأبيض وقد يكون له ارتباط بلون ضريح "سيدي الوالي" ذا القبة البيضاء والموجود داخل حصن المجموعة المعروفة بهذا الاسم.

12 - عرف قبيلة أيت أوسى، ص 5.

13 - سبق وأن ناقشنا هذه النقطة ضمن عمل مستقل، انظر الفصل الخاص بتاريخ المجال والإنسان من خلال المصادر المحلية ضمن، سالم وكاري، دوفورست وأيت أوسى قراءة تاريخية في مونوغرافية استعمارية، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، أكادير: جامعة ابن زهر، كلية الآداب، 2010، ص 42-44.

14 - محمد البربوشي الإنجيتي، سلسلة الأنوار، مخطوط، نسخة شخصية، مؤرخ ب 2 جمادى عام 702هـ/1303م.

عادت قبيلة أيت أوسى مرة أخرى إلى أمسرا بعد إعلان الجهاد ضد الوجود البرتغالي المسيحي على الشواطئ الأطلسية، ففي "هذا المرحلة بالذات نشبت المعركة التاريخية الكبرى بقيادة أيت إعزى وهدى وأفراد قبيلة أيت أوسى ضد المؤسسات البرتغالية"[15]. على أن عودة أيت أوسى إلى "آمسرا" رافقه بداية تطلعها نحو توسيع مجالها الترابي ليشمل المناطق الواطئة المحيطة بالجبل، فتوسعت تدريجيا نحو قصر "إيرَزْ" بتغاجيجت حيث قسمت نوبات الماء بواحة القصر على مكوني القبيلة (أَمَانْ إداوملیل وأمان إداونگيت)، كما زاوجت بين الزراعة بالواحة والقيام بنجعات محدودة ضمن المناطق القريبة.

ويبدو أن استقرار أيت أوسى بالمنطقة قد صادف خضوعها "لسلطان إگْزولَنْ" علي بُودْمِيعَة الذي بسط نفوذه على مجال شاسع امتد من السودان الغربي جنوبا إلى بُوريقي قرب الصويرة شمالا و"صاغ مخططه لمراقبة المجال بشكل عسكري وسياسي محكم"[16]، وفي هذا السياق تربط الرواية الشفهية بين تلك المراقبة ونزوح أيت أوسى من تاغجيجت في اتجاه جبال العْوَيْنَة[17] الحصينة وذلك بعد امتناعها عن الخضوع لبودميعة، هذه الإشارة التي تسمح لنا باستقراء الأحداث من خلال الربط بين ذلك الامتناع، والتساؤل عن انتماء أيت أوسى خلال هذه المرحلة إلى حلف "تَاحُگَّاتْ" الذي لم تضعف قوته وتتراجع سمعته إلا بعد القرن الحادي عشر (17م)، أي بعد أن تحالفت نحلة "تَاكُوزُولَتْ" المناهضة له مع أسرة بودميعة الإيلغية"[18].

لم يمر دخول أيت أوسى إلى مجال "لَعْوَيْنَة" دون إثارة خلافات مع أيت لَحْسَنْ مالكي المجال القدامى، هذه الخلافات التي لن تحسم إلا بعد أن استطاع أيت أوسى تملك عين ماء باللجوء إلى الحيلة[19]، وما يعنيه ذلك من التحكم في محيطها. على أنه خلال هذه المرحلة المتميزة بسيادة القيم البيضانية وتسرب لسان ذوي حسان العرب إلى الغور

15 -De FURST, Etude sur la Tribu des Ait Oussa, p 3.

16 - مصطفى ناعيمي، مادة بودميعة، معلمة المغرب، ص 1674.

17 - عُوِيْنَة أيت أوسى، منطقة إلى الشرق من مدينة الطِّنْطان بجنوب المغرب.

18 - صديقي علي أزايكو، مادة تاحكات، معلمة المغرب، ص 1995.

19 - تقول الرواية الشفهية أنه بعد استقرار أيت أوسى بالجبال المحيط بالعوينة، كان أحد أفراد القبيلة (من فخد إداوتيا) يصطاد بالجبل، فرأى أحد أفراد قبيلة أيت لحسن وهو يغادر مكان عين الماء بعد أن حفر داخلها ووضع علامة لإثبات تملكها، وبعد مغادرته جاء الأيتوسي فحفر أسفل تلك العلامة ووضع أخرى، ليلتقي الاثنان في اليوم الموالي وادعى كل منها تملكه للعين، فاتفقا على تحكيم أيت أَرَبْعين (الجماعة) من القبيلتين، التي جعلت من العلامة السفلى شرطا لتملك العين فكانت من نصيب الإداوتي وبالتالي أيت اوسى بعدما وجدوا علامته هي السفلى.

الصنهاجي، ستنخرط أيت أوسى في لف أيت أَجْمَلْ ضمن اتحادية تَكْنَة، وستساهم الظرفية الزمنية المتينة الاتصال بالمحاور الرئيسة للتجارة في تفعيل تحكم القبيلة بمجالها الجديد وتقعيد هيكلتها. هذه الهيكلة التي تستند فيما تستند إليه إلى" ظاهرة الاستقرار التدريجي للرحل الحاليين محل آخر الحشود المعقلية من ذوي حسان سواء منهم الذين توجهوا جنوبا نحو التراب الموريتاني ليشاركوا في شُرْبُبَّه التباري ضد الغزو الصنهاجي، أم المتوجهين شمالا نحو مراكش والسهول الأطلسية"[20].

ولا شك أن التقلبات التي أحدثتها مغادرة جل فصائل ذوي حسان للمنطقة، قد حددت يومها طبيعة المشتركات الجديدة بين الغور السكاني الأقدم والمتملكون الجدد (أيت أوسى وبعض قبائل أيت أَجْمَل) الذين تمكنوا محليا من فرض تحالفات مع الغور المذكور لمجابهة آخر الفصائل الحسانية المتبقية بالساقية الحمراء، وطرد رجالات أبي حسون السملالي سيد إليغ، محررين بذلك الغور المحلي (أحرار تكنة) من الهيمنة الخارجية.

لقد تم الاستناد في ذلك إلى نظام التحالفات المحلية في شكله القديم، حيث تم تعيين ولد مُرَيْزِيكْ سيد أولاد بو لَحْوَيْلاتْ خلال هذه الفترة السابقة لوصول المولى إسماعيل، كرمز لوحدة قبائل اتحادية تكنة ضد الوحدات المعقلية العربية المتبقية من أولاد دليم وأولاد مبارك، هذه الخطة التي كانت ترمي إلى تقنين الجهاز التمثيلي للاتحادية وتستهدف تجنب كل مغالاة في دور هذه القبيلة أو تلك.

هكذا إذاً تمكنت تكنة بعد تحالفها مع أيت بَعَمْرانْ ودَاوْبْلال، من طرد فصيلتي أولاد أمعروف وأولاد أسنان الدُّلَيميتين خلال المعركة الفاصلة المعرفة حاليا بمعركة "مكيسم ولد مريزيك"[21]، فانحازت هذه الفصائل إلى تيرَس خوفا من ملابسات الصراع وهروبا من شدت جذب سنة 1116هـ/1704م، بينما غادر أولاد مبارك إلى الحوض الموريتاني حيث لازالوا.

وحتى وإن كنا لا نستطيع اليوم الوقوف وبشكل مدقق على دور أيت أوسى دون باقي قبائل الاتحادية في تلك الأحداث، أو حتى موقعها من حركة السلطان المولى إسماعيل إلى المناطق الجنوبية والتي انتهت بتعيين "وحدة تكنية تحت رئاسة حَمُّو أوسْعيد الأزرگي تكلفت بحماية علي شنْذورة بالتَّرارزة"[22]، فإننا بالمقابل نعلم مدى استمرار

20 - مصطفى ناعيمي، مادة التريكزي مبارك، معلمة المغرب، ص 2353.
21 - نفسه، ص 2353.
22 - نفسه.

الارتباط الروحي بمجال آسا والسعي إلى الإبقاء على الصلاة الدموية مع فلول "أهل حمو أوعلي" المتبقين بآسا، هذه الصلاة التي ستبرز بوضوح بعد تعرض أحد أفراد أهل حمو أوعلي القاطنين بقصر آسا إلى الضرب على يد "حَمُّو أَمْغارْ" شيخ قصبة أيت إعزى وهدى (إدْ براهيم أوعبد الله) إثر شجار وقع بينهما حول عين ماء اكتشفها الحموعلي في أَدْرومْ، فما كان من هذا الأخير إلا أن استدعى أفراد القبيلة بالعوينة حيث سيتم تلبية طلبه بإرسال 100 محارب للوقوف على حيثيات الصراع.

يبرز هذا الحادث بوضوح مدى رغبة أيت إعزى وهدى في مراقبة السواقي والعيون واحتكارها، وهو الأمر الذي حدي بهم إلى الدخول في تحالف مع قبيلة أيت أُمْرَيْبَط ذات القوة الزمنية بمجال آسا آنئذ. غير أن قدوم أيت أوسى إلى المجال وما تلا ذلك من أحداث سيعمل على توجيه الصراع في اتجاه آخر أكثر عمقا، وهو ما سيكون له انعكاس على سير الأحداث لاحقا بالمنطقة.

إن الذاكرة الجماعية حول هذه الفترة المتميزة من تاريخ القبيلة لازالت خصبة، وتستحضر مختلف حيثيات وصول "صَرْبَة"[23] أيت أوسى إلى قصبة إد براهيم أوعبد الله (أيت إعزى وهدى)، وكيف غدر هؤلاء الأخيرون بهذه "الصَّرْبَة" بعد أن وضعوا الزيت في أسلحتها، واتفقوا مع أيت أمريبط لنصب "بَرْكَة"[24] لها في الطريق إلى العوينة كان من نتائجها مقتل كل أفراد الصربة باستثناء ثلاثة منهم كانوا قد نزلوا ضيوفا عند أهل القصر، فبقيت أسلحتهم سليمة حيث سيدافعون بها عن أنفسهم وينقلون الخبر إلى القبيلة بعين أيت أوسى.

هكذا إذاً شكل هذا الحادث الذي كان له وقع كبير على القبيلة سببا في قيامها سنوات بعد ذلك بتنظيم هجوم على قصبة إدْ براهيم أوعبد الله، فكان من نتائجه تخريب القصبة وتشريد نسائها من جهة، والإعلان عن مرحلة جديدة من تاريخ القبيلة تميزت بتنامي قوتها الزمنية وتوسع مجالها الترابي من جهة أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال هذه المرحلة (أي النصف الثاني من القرن 18م)، سيكتمل تكون القبيلة بعد انضمام آخر الفصائل إليها مثل أيت بوجمعة المنحدرين من

23 - الصَّرْبَة: هي مجموعة الرجال الموجهة للتفاوض مع قبيلة معينة أو لاسترداد مال منهوب بمثابة البعثة.

24 - البَرْكَة: وهي الكمين الذي ينصبه مجموعة محاربين قصد مباغتة هدف معين بالهجوم والقضاء عليه.

أولاد مبارك المعقليين وأيت إدر "من حراطين إيمي أُوگَادِير (فم الحصن)"[25]، ثم باقي أيت وعبان وهم "أَغْرَبَاتْ من أولاد مبارك"[26]، وكذلك باقي إِدَاوْتِيًّا مثل لَگُوَيْدْرَاتْ" من قبيلة مَشظوف بالأدرار الموريتاني"[27] وأَشْراقة من الحوض وباقي أقوارير وهم أَصْوَالَحْ القادمين من مْحَاميد الغزلان.

بعد الانتصار الذي حققته القبيلة بمجال آسا وتعاظم قوتها الزمنية نتيجة استراتيجيات الضم الموسعة التي انتهجتها، بدأت تتطلع إلى توسيع مجالها الترابي خاصة في تجاه الشرق والجنوب الشرقي، إلا أن تمركز قبيلة إداوبلال بهذه المناطق[28] جعل أيت أوسى تسعى تحت قيادة حَمَّادْ أُوبْرَيْك المستري[29] إلى الدخول في اتفاقيات مع إداوبلال تضمن لها حق انتجاع مراعي "لَحْمادة ولَبْطانة" الخصبة، وهو الأمر الذي اشترط شيخ إداوبلال حينئذ "بَلَّ ولد خَبَيْدَة" لقبوله التزام أيت أوسى بأداء سبعة من الماعز ضريبة سنوية لإداوبلال، الوضع الذي جعل دخول قبيلة أيت أوسى في مواجهة مع إداوبلال أمرا حتميا للدفاع عن كيانها، "فاستشار حماد أوبريك المستري المرابط عْبَلَّ أومبارك جد أهل سيدي بَيْري وطلب منه أن يعطيه دوبلال بعدما أهداه "نعجة" عن كل كانون من أيت أوسى تعويضا له عن المعزة التي كانت تهديها له دوبلال، وهو ما وافق عليه سيدي بَيْري مسلما دوبلال لأيت أوسى، حيث ستتحرك صَرْبة تحت قيادة حَمّاد أوبريك ونائبه أصْرَي القوراري في اتجاه عين خروف (قرب واحة طاطا بالجنوب الشرقي المغربي) مكان تواجد إداوبلال، وقبل وصول الصّربة إلى دوبلال هبت عاصفة شديدة منعت تحركها ولم تهدأ إلا بعد أن استبدل الصري القوراري بحْمَاد أوبراهيم البوجمعاوي، فتحركت الصربة وهجمت ليلا على دوبلال الذين انهزموا أمامهم"[30].

إن الرواية أعلاه وإن كانت تنتصر لروح العصبية داخل القبيلة، فإنها بالمقابل تظهر مدى الأهمية القصوى التي مثلتها معركة عين خْرُوف في الذاكرة الجماعية لأيت أوسى

25 - MONTEIL، Notes sur les Tekna, p 19.
26 - La CHAPELLE، "Les tekna du sud Marocain…", p 98.
27 - Ibid.
28 - لقد كان لإداوبلال-حسب الرواية الشفهية وبعض الوثائق المتعلقة بالمجال الترابي لقبيلة إزرقيين-قوة زمنية أهلتها لفرض سيطرتها على قبائل وادي نون والساحل، إلا أن تحالف تكنة ضدها جعلها تتراجع في اتجاه الجنوب الشرقي المغربي (مناطق: طاطا، أقا ...) حيث لازالت.
29 - يبدو أن هذه الشخصية قد لعبت دورا محوريا في توسيع المجال الرعوي لقبيلة أيت أوسى إلى حين وفاتها "بأَگْزْگر" قرب مدينة الداخلة حاليا.
30 - رواية متواترة لدى شيوخ القبيلة.

لدرجة اختلط فيها الواقعي بالرمزي، على أن استقراء الأحداث الواردة بها قد يمكننا من إعطاء تفسير آخر لها، فبالنسبة لمسألة المنح الرمزي الذي مارسه المرابط عْبَلَّ أومبارك في حق قبيلة دوبلال والتنبؤ بانهزامها أمام المد الأيتوسى فهي رواية نجد مثيلا لها يتكرر في جهات أخرى من الصحراء، حيث أورد صاحب الرسالة الغلاوية رواية تشبهها تتعلق بإعطاء جده سيدي محمد الكُنتي دولة صنهاجة لعرب أولاد الناصر[31]، أما بالنسبة لانتصار أيت أوسى على إداوبلال فهو من باب تحصيل الحاصل بعدما صار البنيان الدوبلالي عليلا يومها لأسباب يطول شرحها في هذا المقام، في حين يمكن تفسير استبدال أَصْرَي بحْمَاد أوبراهيم من خلال البحث في المقومات الحربية لفصيل أيت بوجمعة، فهذا الفصيل ينتمي إلى أولاد مبارك المعاقلة المعروفين بخبراتهم الحربية مما يجعل استثمار هذه الخبرات في معركة مصيرية بالنسبة للقبيلة أمرا ضروريا وإلزاميا، "فتغير المصالح وتنوعها يفضي بالفاعلين إلى التحرك ضمن شبكات من التفاعلات المختلفة، فيبدلون اتجاهاتهم نحو المجموعة الاستراتيجية المناسبة"[32]، على أن الانتصار في هذه المعركة سيؤدي إلى اعتبار ذرية حماد أوبراهيم داخل أيت بوجمعة "مْبارْكِين" "يُتبرك" بهم في الغزوات وتم حصر منصب "مْقَدَّم لَكْشاط" [33] داخلهم.

3- تفاعل أيت أوسى داخل محيطهم القبلي

كان لهيمنت أيت أوسى على آسا والتأسيس لمجالها الرعوي دور في القفز بهذه القبيلة إلى مصاف القبائل المحاربة، حيث ستنخرط في عدة غزوات للدفاع عن مجالها الرعوي وتوسيعه، وهكذا نظموا عدة غزوات[34] ضد أيت لَحْسن، وإزَرْگِّيين، ويَگّوت، وأيت أومْرَيْيط، وأولاد دْلَيْم، وإداوبلال، وعْريبْ، وأيت خَبَّاش، وأيت الخُمس.

31- حول هذه الرواية انظر: رحال بوبريك، دراسات صحراوية المجتمع والسلطة والدين، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة: 1، 2005، ص 68-69.

32 - BIERSCHENK، T، et Olivier، J.P. De sardan: les pouvoir au village. Paris : Editions Karthala, 1998, p 264.

33 - بمثابة الزعيم الحربي للقبيلة، وقد كان أيت أوسى قبل قيامهم بأي غزوة معينة يمرون من تحت لثام هذا الزعيم لجلب الحظ وطرد النحس.

34 - إلى جانب هذه الغزوات كانت هناك "طَيْحَات" تعرض فيها أيت أوسى للغزو من طرف قبائل أخرى ومنها: "طَيْحت سْلَيْفَ القواري، حيث تعرض فيها أقوارير للغزو من طرف أيت أومريبط قرب "لَرْوِيَّات"، وتم نهب ماشيتهم، "طيحت لَخْنَيْقْ"، جاءت عقب غزوة نظمها أهل مسيعيد أوسعيد على أيت أمريبط قرب أَسَرْغين ونهبوا ماشيتهم، إلا أن أيت أمريبط استطاعوا إدراكهم قرب" لْخَنْگْ" فاسترجعوا الماشية وقتلوا الكثير من أهل مسعيد أوسعيد.

ويبدو أن القيام بهذه الغزوات جاء نتيجة لتناقض وظيفي فرضته الحتمية المكانية وتعارض المصالح الاستراتيجية لقبيلة أيت أوسى مع القبائل المذكورة، هذا التعارض الذي سيدفع أيت أوسى سنة 1299هـ/1819م إلى مغادرة لفها الأصلي (أيت أَجْمَل) نحو لف أيت عثمان بعد خلافاتها المستمرة مع أيت لحسن سيدة أيت أجمل، فجاء هذا الانتقال "عامل دعم للف الآخر الذي وجد بذلك سنده الصحراوي المفتقد"[35].

إن تعارض المصالح قد يتجاوز أحيانا إطاره القبلي الضيق المتمثل في تبادل الغزوات بين قبيلة وأخرى إلى عقد تحالفات موسعة كما حدث سنة 1894م، حين تحالف أيت أوسى مع باقي قبائل أيت عثمان والرقيبات ضد أيت أجمل وأولاد دليم، بعد أن "شن أبناء دليم وأيت الجمل غارة على قصر من قصور أيت بَلَّه لأيت أوسى علمه لعوينة ونهبوا المواشي وحملوا ما في ضواحي القصر من الخيام، فصاحت بَلَّه بالنذير المسرع على الرقيبات"[36]، وقد استمر القتال إلى أن وضع قائد تَمَنارَت حدا له وألزم الطرفين بعقد الهدنة.

تجدر الإشارة إلى أن الغزو "غَزِّي" لم يكن دائما دافعه تعارض المصالح أو الرغبة في الغنائم، بل قد تكون ورائه أسباب واهية أحيانا مثل شجار بين شخصين أو غيرها من المشاكل البسيطة، ويبقى أن تبادل الغزوات لم يكن يعني القطيعة بين هذه القبائل، بل تم الاحتفاظ دائما بنوع من التواصل بينها إما على أساس استغلال المراعي وقت الجذب، وفي هذا الإطار التجأ العديد من أيت أوسى إلى أيت خبّاش و"يعيشون حياة الترحال على أراضيهم"[37]، أو من أجل التردد على الأسواق، حيث عقد أيت أوسى العديد من الهدن مع أيت أمريبط لتمكن من استغلال أسواقهم، تقول وثيقة بهذا الصدد "الحمد لله وحده، اتفقت جماعة آل مْرَيْبَط كلهم أيت النّص وأيت عيسى وإدْ كَنَش وأيت تِنَغرى، أنهم نعموا وقبلوا جميع المهادنة التي بينهم وبين أيت أوسى التي تاريخها من ربيع الأول بخط سيدي الطاهر أَبُكْرَيْن، رفع ورفد أيت مريبض إخوانهم أيت النص رفدهم الحسن أحمد، وأيت عيسى محمد أوبوجمعة أوداود رفد أيت عيسى، وأيت تنغرى محمد أمبارك بِيسْرين رفد أيت تنغرى، ورفد عْبَيْد آمْحَمَّد إدكنش وإدْعْبَلَّ، وكل واحد من هؤلاء رفدوا إخوانهم حتى أتم شهرين وضمنوا ضمنة لازمة لتمام الأجل من حد طاطا في الشرق إلى آسا ورفدوا جميع

35 - مصطفى ناعيمي، مادة أيت أوسا، معلمة المغرب، ص 378.

36 - محمد الحبيب ولد عبد الحي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تقديم و تحقيق: مصطفى ناعيمي، الرباط: إشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة: 1، 1992، ص 93.

37 - LA CHAPELLE, "Les tekna du sud Marocain…", 79.

قبيلتهم حتى أيت وْرَانْ، وأما أنت يا سيدي بَيْري لابد من قدومك إلى عندنا بفم الحصن قبل الأجل نتكلم معك بما يليق لنا والخير إننا بارك الله فيكم وادعوا لنا بالخير والسلام"[38]. كما قد يصل الأمر إلى درجة التحالف والمصاهرة كما حدث بين أيت أوسى وأيت لحسن، وأيت أوسى وأولاد دليم.

تحكمت المصالح المتبادلة إذاً في تعامل أيت أوسى مع جوارها القبلي، وفي هذا الإطار كانت علاقتها بقبائل لفها من أيت عثمان حسنة ويطبعها نوع من المرونة نتيجة مراقبة هذه القبائل لأسواق وادي نون، هذه العلاقة الحسنة التي يمكن أن نلتمسها من خلال عقود الأخوة المتعددة بين أيت أوسى وأَزْوافِيط، وأيت أوسى وأيت أحْمَاد:

* "هذا وأن أبناء عْقِيدِ محمد وأخيه أحمد وأخيهم الأيتوسيون من بني آل وعبان، تخاوو مع محمد بن البشير بن أحْمَادَات الزفاطي من ءال أيت أحمد بن علي دِيَّة وطلبا، وفَكٌّ ونعرة بما جرت به عادة بني جزولة"[39].

* " وبعد فقد أشهدوني وهم الحسين بن (.....) الأيتوسي وابن عمه عْبَيْد بن حَمَّادي بن علي النسب وأخيه فَرَاجي بن حمَّادي كلهم من بني أيت أوسى، أشهدوني هؤلاء المذكورين أنهم إخوان محمد البشير بن حمادات الزفاطي ديَّة وطلبا وكلما تجري به عوائد تَكْنَ فإنهم فيه إخوان"[40].

* "فليعلم الواقف على أمرنا هذا أني وجدت هذه النسخة صحيحة ثابتة منقولة من أصل ثابت لما بعد تمزيقها وتقطيعها وافتقارها للنسخ (...) الأيتوسي صار أخا لمحمد بن أمبارك بن ذَنْبَ الحَمَادي، أخوة تامة مستوفية لشروط خاوة أهل زمننا هذا من فَكٌّ ونَعْرَة وديَّة وطلب وغير ذلك مما سيأتي به الزمان طال أم قصر، نعم وكذلك بن أبيه بن منصور النّفلوسي، وكذلك مَيْلِيدْ بن محمد النفلوسي، وكذلك آمْحَمَّد بن أحمد النفلوسي، وكذلك أمبارك أنَّامَك بن (....)"[41].

38- محمد الكينيشي السملالي، عقد هدنة بين أيت أوسى وأيت مريبط، بحوزتنا نسخة مصورة منه، مؤرخ بعام 1347هـ/1928م.

39 - أحمد بن علي سعيد باني الأيتوسي، عقد أخوة بحوزتنا نسخة منه، مؤرخ ب1318هـ/ 1901م.

40 - محمد لمين بن عبد الله بن صالح الفيلالي، عقد أخوة بحوزتنا نسخة منه، مؤرخ ب1309هـ/1892م.

41 - عقد أخوة، سقط منه التاريخ واسم الكاتب نتيجة التلف الذي أصاب جزئه الأسفل.

ظلت علاقة أيت أوسى بالرقيبات جنوبا يطبعها حسن الجوار نتيجة دخول بعض فصائل الرقيبات تحت حماية أيت أوسى كالقواسم وأولاد الشيخ وأولاد داود[42]، يضاف إلى ذلك اختلاط المراعي وعلاقات المصاهرة المتبادلة. ولعل في المثل الحساني القائل "الركَيبات خيمة وأيت أوسى كْفَاهَا" خير دليل على تلك العلاقات الحسنة. نفس هذه العلاقات كانت تربط أيت أوسى بتَجَكانْت الشرقية نتيجة الطابع الزاوي لهذه القبيلة، ومراقبتها لسوق تيندوف جنوب الجزائر.

يبدو إذاً أن الدافع الأساس وراء ربط أيت أوسى لعلاقات حسن الجوار مع محيطها كان دافعه الحفاظ على مصالحها الاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية بالمنطقة، غير أن علاقات حسن الجوار لم تكن دائما على نفس الوثيرة، بل تخللها تناقضات وصراعات كان من أسبابها المنافسة حول المجال كما هو الشأن بالنسبة لأيت أوسى مع باقي قبائل لف أيت عثمان، وهو ما اضطرها "إلى التحالف المرحلي مع لف أيت الجمل حتى تضع حدا لتعسف أزْوافيط المتكرر، فكثيرا ما وجدت نفسها في وضعية تحتم عليها تحمل الوجود الممتد لِمَحاصِر ومواشي قبائل أزوافيط وأيت حْماد وخاصة أيت براهيم"[43]، أو بسبب الاغتيالات المتبادلة مع الرقيبات[44]، أو نتيجة المنافسة التجارية مع تجكانت، وعمليات النهب التي كانت تتعرض لها قطعان تجكانت على يد أيت أوسى، وهو ما نقف عليه في الوثيقة التالية "الحمد لله وحده، السلام والتحية والإكرام من محمد بن أحمد بن هَيْبَة اللحياني إلى مَوْلود بن مَسْعود الأيتوسي وابنه المهدي، موجبه إليكم أن الجمل الذي نهبتم مع حيوان[45] تجكانت الأخضر[46]، وعليه نار[47] أولاد سيدي أَغْلِ على مرتين، وعليه

42 - LA CHAPELLE, "Les tekna du sud Marocain…", 76.

43 - عمر ناجيه، البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرن 18 و19 الميلاديين: قبيلة أيت لحسن نموذجا، أطروحة السلك الثالث في التاريخ، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 2000/1999، ص 470.

44 - هذا ما يمكن أن نستشفه من عقد هدنة مؤرخ بـ1327هـ/1910م، اتفق فيه أيت أوسى مع الرقيبات على "جميع الديون والمواير التي بينهما بالديات وجميع الحسابات".

45- حَيْوان أي إبل وهو المرادف الذي يطلقه أهل غرب الصحراء على الإبل.

46- المائل للسمرة أو الأسود.

47- النار أي الميسم والعلامة حيث كان لكل قبيلة ميسم خاص أو مياسم متعددة تضعها على رقاب إبلها أو قوائمها من أجل التدليل على ملكيتها وتبعيتها لها، وداخل أيت أوسى نجد مياسم متعددة (د، x، خ، د//...).

نار إِدَيْبُسات[48]، وإياكم وعليه نار الطَّب[49] على ذراعه الأيسر، وإياكم وأن الجمل جملنا لا يفوتنا ولا يضيع، فإن ضيعته فما ضيعت إلا مالكم والجمل لَشَتُّو ولَمَشتُّو[50] فينا ومنا وإلينا والسلام"[51].

خاتمة: ومن حصاد ما سبق نصل إلى أن أيت أوسى تمكنوا على امتداد ثلاثة قرون من توسيع منطقة ترحالهم، ومن الاستيلاء كليا بواسطة السلاح على مجال رعوي شاسع مسخرين من أجل ذلك صنفين من التحركات: التحركات الجماعية المكتسحة القائمة على التنافس والتدافع وما يتبعه من صراع وتحالفات قبلية محدودة أو موسعة، وصنف التحركات التحتية المبنية أساسا على التحرك الرعوي المدفوع بدوافع التوسع المجالي الصرف، وفي خضم كل ذلك تحولوا إلى رحل وأصحاب إبل. تحول تمخضت عنه قفزات نوعية انتهت بظهور مفهوم "تْرَابْ أيت أوسى"، وإن تكون في معظمه من مراع أي أراضي ميتة في نظر القانون الإسلامي.

ويبقى أهم استنتاج يمكن أن نخرج به من خلال تتبعنا لصيرورة تكون " أيت أوسى" هو كون أطروحة الجد الأسطوري تفقد دعائمها مع هذه القبيلة. ويتحول المجال إلى رمز للتجمع والتوحد على أساس المصلحة كما يقر ذلك أفراد القبيلة أنفسهم، فبنية أيت أوسى ارتبطت منذ بدايتها بالأرض والتعمير، وكانت ضرورة الحصول عليها وتملكها وفق ثالوث الغزو والإجلاء والدفاع العامل الذي حتم تجمع فصائل أيت أوسى، وأبقى على لحمة التواصل بينها حتى أن مختلف التسميات التي تبنتها القبيلة كانت تربطها بالمكان والأرض (أيت أوسى: نسبة إلى قصر آسا، إِدَاوْمَسْتَر: نسبة إلى جبل أَمَسْرَا...)، بل إن تنظيمها الاجتماعي نفسه القائم على الانشطار إلى لفين (إِدَاوْنْكِيت وإداومَلّيلْ) ذو خلفية مجالية صرفة مستمدة من التقسيم المجالي بقصر آسا، الأمر الذي يجيز لنا القول بأن المجال والأرض أكثر كثافة وحضورا من عامل الدم والنسب فيما يخص البنيان الأيتوسي وتشعباته.

48- من قبائل القطر الموريتاني.

49- أي الكي مكان مرض معين.

50- سواء رأيته أو لم تره.

51- محمد بن هيبة، رسالة من محمد بن أحمد بن هيبة اللحياني إلى مولود بن مسعود الأيتوسي وابنه في شأن استرداد جمل مع إبل منهوبة، بحوزتنا نسخة منها، غير مؤرخة.

لقد ظل المجال بحق العنصر المحرك والفعال لدينامية وبنية أيت أوسى. مجال ظل يتمطط في الأذهان وعلى أرض الواقع مجسدا صيرورة تكون قبيلة جعلت من الأرض عنوانها وقوامها إلى اليوم.

المراجع:

ابن عبد الحي، محمد الحبيب، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تقديم وتحقيق: مصطفى ناعيمي، الرباط: إشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة: 1، 1992.

ابن كثير، الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، الجزء التاسع، بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة 8، 141ه/1990م.

الإنجيتي، محمد البربوشي، سلسلة الأنوار، مخطوط، نسخة شخصية، مؤرخ ب 2 جمادى عام 702ه/1303م.

رحال بوبريك، دراسات صحراوية المجتمع والسلطة والدين، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة: 1، 2005.

ناجيه، عمر، البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرن 18 و19 الميلاديين: قبيلة أيت لحسن نموذجا، أطروحة السلك الثالث في التاريخ، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1999/2000.

ناعيمي، مصطفى وآخرون، معلمة المغرب، سلا: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1989.

وكاري، سالم، دوفورست وأيت أوسى قراءة تاريخية في مونوغرافية استعمارية، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، أكادير: جامعة ابن زهر، كلية الآداب، 2010.

ولد محمد الباهنين، مولاي عمر، ديوان قبيلة آيت أوسى، مخطوط بحوزتنا نسخة منه، مؤرخ ب1369ه/1949.

BIERSCHENK، T، et Olivier، J.P. *De sardan: les pouvoir au village*. Paris: Editions Karthala, 1998.

De FURST, C. *Etude sur la Tribu des Ait Oussa*. Vincennes: Rapport consigné dans les Archives de l'Armée de Terre, sous le n° 3H2211 (Poste d'assa).

De La CHAPELLE، F. *Les Tekna du sud-Ouest marocain, étude géographique, historique et géologique*. Paris: Publication du comité de l'Afrique française, 1930.

KILANI, M. *La Construction de la mémoire: le lignage et la sainteté dans L'oasis d'Elksar.* Geneve: Editions labor et Fides, 1992.

MONTEIL،V. *Notes sur les Tekna*. Paris: institut des hautes études Marocaines, 1948.